مشروع النشر المشترك



كتاب الاستبصار في عجائب الامصار

نشر وتعليق

الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

طبـاعـة ونشـر
دار الشـؤون الثقافيـة العـامـة «آفـاق عـربيـة»

تعنـون جـميـع المراسلات
لرئيس مجلس ادارة دار الشؤون الثقافية العامة

العنـوان :
العـراق - بغـداد أعظميـة
ص . ب ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار

وصف مكة والمدينة ، ومصر ، وبلاد المغرب

لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري (١٢م)

نشر وتعليق

الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية سابقا
الاستاذ بكلية الآداب بجامعة الكويت

مقدمة

لسنا أول من يعنى بكتاب الاستبصار . فمنذ حوالى قرن نشر ألفرد فون كرمر الجزء الخاص منه بالمغرب نقلا عن مخطوط كان فى حوزته (١) . ولكن هذه النشرة غير كاملة : إذ تنقصها الفصول الخاصة ببلاد غُمارة ، واستقرار الأدارسة بالمغرب ، وزندقة بَرْغُواطة ، ومدينة سجلماسة ، وبداية العُبَيْديين الفواطم ، ومدن دَرْعَة وأَغْمَات ونَفيس وتينْمَلَل ومرّاكُش ، وكذلك الفصول الخاصة ببلاد السوس المتاخمة للسودان (دون ذكر بلاد السودان نفسها) . وإلى جانب ذلك فإن نشرة فون كرمر تحتوى هنا وهناك على بعض النقص مما كبر حجمه أو صغر .
وبعد ذلك بحوالى خمسين عاما نشر ا . فانيان ترجمة فرنسية كاملة لهذا الجزء نفسه مصحوبة بهوامش وتعليقات ، واستخدم طبعة فون كرمر ، ومخطوطى الجزائر ، ومخطوط باريز (٢) . ومع أن فانيان عمل فى ترجمته على تكملة نشرة فون كرمر وسد الثغرات التى كانت بها إلا أن ما قام به لا يغنى عن النص العربى ، ولا يرضى حاجة المشتغلين بالدراسات العربية .

هذا إلى جانب أن الجزء الذى بقى من الكتاب دون نشر كبير ومهم ، يبلغ حوالى نصف النص العربى الكامل . وهو ينقسم على قسمين : الأول ويبلغ الثلث خاص بالأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ؛ والثانى خاص بمصر وعجائبها .

وهكذا تحدد عملنا — الذى يهدف إلى إكمال ما قام به كرمر وفانيان — فى نشر النص الكامل لكتاب الاستبصار ، ثم ترجمة الجزء الخاص بالأماكن المقدسة ومصر إلى الفرنسية .

---

(١) Alfred Von Kremer, Kitab al - Istibsar fi 'Aja'ib al - Amsar : Description de l'Afrique par un géographe arabe anonyme du VI[e] siècle de l'Hégire, Vienne, 1852.

(٢) E. Fagnan, L'Afrique septentrionale au XII[e] siècle de notre ère; Extrait du recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine, 1900

المؤلف :

ومما يدعو إلى الأسف أننا نجهل مؤلف كتاب الاستبصار . فباستثناء ابن أبي زرع ، صاحب كتاب روض القرطاس ، الذى يذكر عنوان الكتاب (١) لم يشر أى كاتب آخر إلى الكتاب أو إلى مؤلفه . هذا كما أن المؤلف لا يمدنا خلال كتابته بأية معلومات تكشف لنا عن شخصيته . وهنا نجد ثلاث كلمات تعبر عنه وهى : " المؤلف " أى صاحب الكتاب ، " والناظر " ثم " الواضع " ولها معنى كلمة المؤلف . وعلى ذلك فسنكتفى بالعناية بكلمتى " المؤلف " و " الناظر " . هل تعنى الكلمتان شخصية واحدة أو شخصيتين مختلفتين ؟ يمكن أن تكون كلمة الناظر لقبا كان يحمله المؤلف وبهذا تدل " المؤلف " و " الناظر " على شخص واحد . ولكن هذا الافتراض غير محتمل إذ لا نعرف " الناظر " لقبا فى تلك الفترة . وقد يكون معنى كلمة " الناظر " قريبا من معنى كلمة " المراجع " أى الذى أعاد النظر فى الكتاب ونظمه وأعطاه شكله الأخير . وهنا تعنى كلمة الناظر شخصا آخر غير المؤلف . وهذا ما تؤيده الفقرة التالية التى تختم الكتاب (ص٢٢٦) : " قال الناظر : هنا انتهى ما وجدته من هذا الموضوع ، ولقد أحسن واضعه ورتب ما حقق ، وهذا لعمرى أقرب وأخصر من غيره ، ففيه ما فى غيره وليس فى غيره ما فيه . وحققت وطرزت كتاب الواضع بما قيدت فى هذه المواضع ، وأنا مؤمل أن أتفرغ لوضع كتاب كامل يحتوى على ذكر بلاد المغرب وممالكها إلى هذه الايام السعيدة الإمامية ، وأضيف إليها ما رفعته للحضرة العلية من مفاخر هذا الأمر العالى — أيد الله دوامه — سنة ٨٠[٥] [= ١١٨٤ — ١١٨٥] ، وهو ما يزيد عندى من فتوحاته المستأصلة لشأفة الأعداء ... " .

---

(١) يذكر ابن أبي زرع كتاب الاستبصار عندما ينقل عنه جزءا خاصا بمدينة فاس (أنظر روض القرطاس ، ص ٢٤) . ولما كان هذا الجزء لا يوجد فى الكتاب كما هو بين أيدينا اليوم فإن هذا يدعو إلى الظن أن كتاب الاستبصار إما أن يكون قد وصلنا ناقصا أو مختصرا .

وأيا ما كان فإنا نعتبر " الناظر " هو المؤلف الحقيقى للكتاب بصورته التى وصلتنا ، فهو قد لجأ إلى كتاب قديم نجهل صاحبه ، فوضع له المقدمة ، ورتب فيها منهجه (من وصف الأماكن المقدسة ومصر وبلاد المغرب) ، وهو قد نقح الأصل وحققه وأضاف إليه ، ثم ختمه . وهو يعد بإخراج كتاب خاص بتاريخ المغرب إلى أيامه . وفى الكتاب فقرات تبين أن الناظر عاش على عهد يعقوب المنصور الموحدى ، وأنه كان ينظر بعين الولاء لأحد كبار رجال الدولة حينئذ وهو الشيخ أبو عمران بن أبي يحيى بن وقتين الذى يهدي إليه الكتاب ويطلب منه حسن الرعاية (ص ١، ٢) . ويظهر أنه كان يصنف الكتاب فى سنة ٥٨٧ (١١٩١) كما يفهم من بعض إشاراته (ص ١٣٨) ، وخاصة بمناسبة سفارة ابن منقذ رسول صلاح الدين إلى الخليفة المغربى (ص ١٠٧) ؛ وبمناسبة العمليات الحربية ضد بنى غانية بإفريقية (ص ١١١) . ولكنه يتضح أيضا أن الكتاب كان موضع تنقيحات تالية بالنسبة لهذا التاريخ ؛ والمثل لذلك زيارة ابن منقذ . فبهذه المناسبة يعود صاحب الكتاب ، بعد أن يذكر أنه كتب ذلك فى رمضان سنة ٥٨٧ (سبتمبر — اكتوبر ١١٩١) ، فيقول إن رسول صلاح الدين ترك العاصمة المغربية فى ١١ من المحرم سنة ٥٨٨ (٢٨ من يناير ١١٩٢) .

هذا وتدل التفصيلات التى يمدنا بها عن مكناسة وفاس ومراكش على معلوماته الغزيرة عن هذه المدن . فلا شك أنه عاش فيها إن لم يكن أصله منها ؛ فهو لا يكتفى بالوصف الدقيق للعواصم المغربية بأمبراطورية الموحدين على عهده ، ولا بالأعمال الإنشائية التى تمت على عهد يعقوب وسلفيه ، بل يقترح خططا عمرانية أخرى تهدف إلى نشر الرخاء فى هذه المناطق .

وزيادة على ذلك فإن المعلومات التى يعطيها عن الحملة العسكرية ضد بنى غانية فى إفريقية تتفق بشكل غريب مع إحدى الرسائل الرسمية الصادرة من ديوان يعقوب المنصور ، والتى يقتطف منها بعض الفقرات (ص ١٥٩ وهامش ١) . وهو عندما يتكلم عن بلاد السودان يقول إنه اطلع على الرسائل

الرسمية الصادرة باسم غانة ملك أحد هذه البلاد إلى يوسف بن تاشفين (ص ٢١٩)؛ ومعنى هذا أن سجلات المرابطين القديمة كانت فى متناول يده ؛ أو وصلت إليه صور منها على الأقل .

من كل ذلك يمكننا أن نفترض أن المؤلف " الناظر " كان يشغل وظيفة لدى يعقوب المنصور كانت تمكنه من الاطلاع على مجرى الأمور فى ديوان الخليفة أو فى بلاطه . وهنا يمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنظن أنه ربما كان صاحب الرسالة الرسمية نفسه أى ابن مَحْشَرة (١) . يؤيد ذلك ما يظهره المؤلف من آيات الولاء والخضوع للخليفة وسلفيه ، ذلك الولاء الذى لايصدر إلا من خادم مخلص للموحدين .

الكتاب :

إن النظرة السريعة إلى كتاب الاستبصار تبين أن موضعه بين كتب المكتبة الجغرافية العربية . ورغم ذلك فإنه من الصعب وضعه فى موضعه الصحيح بين أصناف الكتب الجغرافية المعروفة : من كتب الأطوال والعروض ، وكتب تقويم البلدان ، وكتب المسالك والممالك ، أوكتب العجائب (٢) . والحقيقة أننا لو أخذنا بعنوان الكتاب ، وهو «كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار» لوجب وضعه بين كتب المجموعة الأخيرة . ولكن الأمر ليس كذلك ؛ إذ هو ليس كتاب جغرافية خالصة . فرغم تاريخ تأليفه المتأخر نسبيا نلاحظ أنه يحتوى على خليط من التاريخ والجغرافية من كل لون ، مما يجعله أشبه مايكون بكتب الجغرافية من النوع البدائى الأول .

فمن وجهة النظر الجغرافية — ولهذا السبب وحده — يمكن أن يقال بشكل عام إن الكتاب ليس من كتب الجغرافية العلمية المبتكرة ، فهو غير مخصص

---

(١) أبو الفضل جعفر بن محمد بن على بن طاهر بن تميم القيسى المعروف بابن محشرة (٥٤١ — ٥٩٨/١١٤٦ — ١٢٠١) . أنظر E. Lévi-Provençal, un recueil de lettres officielles almohades, étude. p. 9 et note 22.

(٢) أنظر R. Blachère, Extraits des géographes arabes , Paris, 1932 ؛ سعد زغلول عبد الحميد ، ملاحظات عن مصر كما رآها ووصفها الجغرافيون والرحالة المغاربة ، مجلة كلية آداب الاسكندرية ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٩١

لعجائب البلدان ، كما يمكن أن نتوقع ، وإنما هو مصنف يحوى معلومات دقيقة وأخبارا عامة وأساطير طريفة ، جمعت بعضها إلى جانب بعض بغرض تقديم وصف سهل لطيف مستساغ للقارئ لا تثقله الدقة العلمية المتعبة والتى لاتهم سوى الإخصائيين .

المصادر :

إن مما يعين على معرفة المصادر المختلفة التى أخذ عنها المؤلف معلوماته أن نأخذ بعين الاعتبار أن الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام مختلفة هى : الأماكن المقدسة ومصر وبلاد المغرب .

والجزء الأول عبارة عن وصف مكة والمدينة ، والهدف منه هو تصوير شعائر الحج . والمؤلف يُعنى فيه بوصف مكة عناية بالغة ، فهو يعدد ضواحيها وتلالها ، والجبال المحيطة بها . ثم هو يصف بكل دقة الكعبة ومقاييسها وبابها والحجر الأسود بها . ثم هو يستطرد فى وصف المسجد الحرام ، ويصف بئر زمزم ؛ وهو خلال ذلك يشرح مناسك الحج . وإلى جانب هذا يصف المساجد الأخرى مثل مسجد الخَيْف ومسجد المُزْدَلفة . وفيما يتعلق بالمدينة يستطرد المؤلف بنفس الشكل عند الكلام عن مسجد النبى وقبره المبجل ، ومسجد قُبَا ؛ وينهى وصفه بالكلام عن قبور الشهداء فى سفح جبل أُحد .

وهذا الجزء عظيم الأهمية نظرا لمعلوماته الدقيقة وطريقته العلمية ؛ ولكننا لانعرف من أى المصادر استقيت مادته . فالمعلومات التى يمدنا بها عن مكة مختلفة عن معلومات الأزرقى (القرن الثالث الهجرى = ٩ م) التى ينقلها ابن رُسْته (نهاية القرن الثالث = ٩ م) ، وهى تختلف كذلك عن معلومات ابن جُبَيْر المعاصر لمؤلف الاستبصار ؛ والمعروف أن ماكتبه الأزرقى وابن جبير يعتبر أهم ماكتب عن مكة والكعبة وأكثره أصالة . وهنا نجد أن المؤلف لايدين بشئ لهذين الكاتبين . ويمكن بعد هذا أن نفترض أنه نقل عن البكرى الذى كتب فى سنة ٤٦٠/١٠٦٧ كتابه المعروف بالمسالك والممالك . والحقيقة أن كتاب البكرى هو المصدر الرئيسى لصاحب الاستبصار

بالنسبة للجزء الخاص بمصر والمغرب ، ولكن ضاعت من كتاب البكرى الفصول الخاصة بالأماكن المقدسة ؛ وهكذا فلا سبيل إلى القول بأن صاحب الاستبصار نقل هذا الجزء أو شيئا منه عن البكرى أو لم يفعل . وفيما يتعلق بوصف المدينة ومسجد النبى لانعرف أيضا المصدر الذى أخذ عنه الاستبصار ، ومعلوماته تختلف عما كتبه ابن رسته وابن جبير . وهنا نجد أن المؤلف يقول إنه فى سنة ٥٢٨/١١٣٣–١١٣٤ كان يوجد فى رواق المسجد وطاء طبرى (ص ٤١) . وهذا يحملنا على الظن أن الجزء الأول من الاستبصار نقله مؤلفه سنة ٥٨٧/١١٩١ عن مصدر لم يصل إلينا كتب سنة ٥٢٨ أو بعد ذلك .

أما الجزء الثانى من كتاب الاستبصار فيوضع بصفة عامة ضمن ماكتب عن عجائب العالم : فكل مايحويه عبارة عن غرائب وأشياء مدهشه فريدة فى نوعها . وزيادة على ذلك نلاحظ أن خطة الفصول الخاصة بمصر تنقسم على فترتين : فترة مصر القديمة ، التى تنقسم بدورها إلى فترتين يفصل بينهما الطوفان ؛ ثم فترة مصر الحديثة أى العربية . وتبدأ الفترة الأولى بوصف عام للبلاد ، وتنتهى بظهور الإسلام وفتح مصر على أيدى العرب . والفترة الثانية خاصة بوصف المدن المصرية ، وتبدأ بقصة الفتح منقولة عن ابن عبد الحكم . والحقيقة أن هذه التقسيمات ليست مقبولة إلا بصفة عامة ، وذلك أن المعلومات الجغرافية والتاريخية ، القديمة منها والحديثة ، تختلط وتتداخل خلال التقسيمات الصغيرة بعد ذلك بشكل لايدع مجالا للتفرقة بينها .

والمؤلف يستخدم فى تصنيفه لهذه الفصول خمسة مصادر مختلفة يذكرها فى بعض الأحيان ، وهى : المسعودى (توفى ٣٤٥/٩٥٦) ؛ وابن وصيف–شاه الذى يظن أنه فارسى الأصل وأنه كان يسكن بلدة اخميم ، الذى يكتب حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد (أواخر القرن الرابع الهجرى) (ص ٦٠ هامش ٢) ، وكان عالما بتاريخ مصر القديمة – حسب مفهوم ذلك التاريخ فى العصور الوسطى بطبيعة الحال ؛ وابن عبد الحكم ؛ ثم البكرى . وأخيراً هناك معلومات الناظر الشخصية وهى تتعلق فى معظم الأحيان بالأحداث التى عاصرها ، وهو فى كل مرة يسبقها بكلمتى : " قال الناظر " . والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو :

هل أخذ المؤلف معلوماته مباشرة عن المصادر التى يذكرها ؟ هنا نلاحظ أن القطع الباقية من كتاب البكرى والخاصة بمصر (مخطوط المكتبة الوطنية بباريز ، القسم العربى ، رقم ٢٢١٨) تشبه بشكل واضح ، من حيث الخطة ومن حيث التفصيلات ، الفصول المماثلة من الاستبصار . وهذا يجعلنا نعتقد أن صاحب الاستبصار نقل عن كتاب البكرى معلوماته التى أخذها عن المسعودى وابن وصيف – شاه وابن عبد الحكم . وهذه الملاحظة لا تمنع من أن يكون المؤلف قد قرأ هذه الكتب التى كانت شائعة فى عصره ، وأن يكون قد أخذ منها معلومات أضافها إلى ما كتبه البكرى . ورغم أنه لايذكر كتاب الإدريسى فالظاهر أنه تأثر به فى أكثر من موضع . والمؤلف عندما يعالج قصة الفتح العربى لمصر ينقل عن ابن عبد الحكم كما سبق أن نقل البكرى ؛ وفيما يختص بمصر القديمة يذكر ابن وصيف – شاه وينقل عنه . وفى مجال التاريخ القديم هذا لا ننتظر من المؤلف شيئا جديدا ، وذلك على عكس ما كنا ننتظره منه من المعلومات الجديدة عندما يعالج موضوع المدن المصرية ، كما فعل بالنسبة لمدن المغرب ، وهذا ما لم يفعله . فالصليبية فى الشام كانت على أشدها والمدن المصرية كانت مسرحا لعدد من المآسى التى كان لها صداها فى المغرب ولكن المؤلف الذى خصص صفحات – فى آخر هذه الفصول – للصليبية وانتصار صلاح الدين اكتفى بنقل الوصف التقليدى للمدن المصرية كما فعل المسعودى وابن عبد الحكم والبكرى . وأكثر من هذا فإنه يؤخذ عليه أنه كاد يوقع القارئ فى الخطأ عندما أهمل ذكر المصدر الذى نقل عنه ، وغيّر شكله إلى حد ما ذاكراً تاريخ الوقت الذى كان يكتب فيه هو نفسه . والمثال لذلك هو معلومات المسعودى عن مدينتى تِنِّيس ودِمْياط التى يذكرها صاحب الاستبصار ويختمها بالشكل التالى :

" ويسكن بجزيرة تنيس ودمياط نصارى هم الآن تحت الذمة بحمد الله ، ونحن فى سنة ٨٦[٥] [= ١١٩٠] " (ص ٨٨) ؛ كما لو أن هذه الحقيقة كانت واقعة على أيامه أو كما لو أنه حققها بنفسه . وهو فى الحقيقة لم يعرف

أن تنيس كانت هدفا لعدد من غارات الصقليين والصليبيين ، وأن أهلها جلوا عنها فى سنة ٥٨٨ [= ١١٩٢] عندما كان يعيد النظر فى تأليفه (هامش ١ ص ٨٨) .

وما أن يترك المؤلف مصر ليعالج بلاد المغرب والسودان حتى يتخلص من آثار الماضى التى تسلطت على نفسه وقلمه ، فهو يسجل ما يشاهده ويعطى وصفا أكثر دقة . وإذا ما راعينا أنه كان مغربيا وبالتالى عارفا بالبلاد التى هى موطنه ، فهمنا بسهولة أن هذا القسم من الكتاب يفوق فى أهميته ما سبقه من الأقسام .

هنا نجد أن المصادر التى يأخذ عنها الكاتب معلوماته والتى يذكرها هى ، المسعودى والبكرى – وهذا الأخير يعتبر المصدر الأول للقسم الثالث من الكتاب خاصة . هذا إلا أن مجهود المؤلف لا ينكر ، فهو ينتهج منهجا خاصا به ، ويعطى معلومات شخصية فى غاية الأهمية ، لاسيما عن إفريقية والمغرب الأقصى .

أهمية الكتاب :

يعتبر الكتاب مصدرا لمعلومات متنوعة الألوان من جغرافية وتاريخية وأثرية . وهو يسهب فى وصف رخاء مصر الزراعى ، الذى يرجع إلى النيل ، ويؤكد بصفة خاصة خصوبة منطقة الفيوم . والفيوم تجذب انتباهه بفضل عمليات المياه فيها ، وهذه تزيد من مزروعاتها وفواكهها . وفيما يتعلق بمنطقة الفرما يذكر أن تمرها يعد من عجائب الدنيا . أما عن معادن الزمرد الواقعة بين مدينة قُوص ومدينة أسْوان فهى موضوع خصب لاسترسال قلمه وإسهابه . وهو بعد ذلك يعتنى بصناعة النسيج فى دمياط وتنيس ، حيث كانت تصنع أردية لا تدخل فى نسجها خيوط الذهب ، ويساوى الرداء منها مع ذلك مائة دينار . وكانت حرفة صيد السمان مربحة لأهالى المدينتين . وفى هذا العصر كانت مدينة عيذاب ميناء مهما منه تتجه المراكب نحو الحجاز واليمن والهند وغيرها من البلاد .

وفيما يخص بلاد المغرب يبين الكتاب الثروة الزراعية والمعدنية لكل مدينة مثل : حرير قابس ، وزيت سَفَاقُص الذى يصدر إلى صقلية وإيطاليا وفرنسا (الأرض الكبيرة) ، ومنسوجات سُوسة ، وأسماك بَنزرت ، ومرجان طَبَرقة ، وتمر الواحات وبلاد الجريد ، وذهب البلاد الواقعة بين الواحات ومصر ، وفستق قَفصَة ، وقمح باجة ، وصوف وَجّة ، ونحاس فاس ، وزيت مِكنَاسَة وضواحيها ، وجلد اللمط والملح ثم السكر ، بصفة خاصة ، التى اشتهرت بها بلاد السوس ، والتى كانت تصدرها إلى كل بلاد المغرب والأندلس وإفريقية ، وكذلك النحاس المصنوع والعسل والنبيذ والدقيق والعنبر الممتاز . وعندما يتكلم عن بلاد السودان يستطرد فى ذكر الشب الأبيض وحجر المغناطيس .

ومن الناحية التاريخية يحتوى الكتاب على معلومات مختلفة فى طبيعتها ، وفى قيمتها : كالقصص التاريخية القديمة المنقولة عن كتب معروفة أو مفقودة وهى من طبقة الأساطير ذات القيمة الأدبية فقط ؛ ومثل الوثائق التاريخية المعاصرة ذات الأهمية البالغة .

والقسم الأول الذى يصف الأماكن المقدسة بشكل مطول مهم بالنسبة لتاريخ الفن ، ولاسيما إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى ندرة المصادر الخاصة بالآثار ، مما يجعل مهمة مؤرخ الفن من الصعوبة بمكان .

والقسم الخاص بمصر يعطينا فكرة عن الروح التى كانت تسيطر على مفهوم تاريخ مصر القديمة : فكل ما هو قديم ينبغى أن يكون عجيباً دون اعتبار للوثائق الأكيدة الموجودة فى متناول الأيدى . وهكذا قيل إن الرصاص استعمل بدل الملاط فى بناء الأهرام ؛ وكان يكفى النظر فى هذه الآثار للتأكد من أن الأمر ليس كذلك . وترتب على هذه الفكرة أن أصبح الجزء الثانى من الكتاب – على عكس الجزء الأول الجاف – ذا صبغة أدبية بصفة خاصة .

والفصل الخاص بمدينة الإسكندرية مهم جداً ؛ ففيه يصف المؤلف المنار المشهور بإسهاب ، ويبين موقع المدينة من الناحية العسكرية ، وكيف أنها كانت هدفاً لتهديدات الأعداء التقليديين النصارى ، وخاصة الصقليين

منهم . أما عن جهاد صلاح الدين وانتصاره على الصليبيين ، وسفار ابن منقذ إلى المنصور الموحدى ، فقد شغلت عدة صفحات مهمة ك نأمل لو أنها زادت إلى أكثر من ذلك .

والقسم الأخير الخاص بالمغرب مهم جداً بالنسبة لتاريخ الموحدين . فصاحب الكتاب يندد بمرارة بثورة على بن غانية فى إفريقية ، ويدافع عن موقف سيده الأمير . أما المعلومات المتعلقة بالمغرب الأقصى فهى أصيلة ومهمة للغاية : مثل المجهودات المعمارية التى قام بها أمراء الموحدين الثلاثة الأول ، وخاصة يعقوب منهم : كعمليات المياه ، وبناء المساجد والقصور ، ثم إنشاء الحصون فى مدن مراكش وفاس ومكناسة .

من كل ما تقدم يتبين أن كتاب الاستبصار يعتبر حقيقة موسوعة تاريخية جغرافية مختصرة .

تحقيق النص :

وقد رجعنا فى تحقيق النص إلى مخطوطات ثلاث : واحدة بالمكتبة الوطنية بباريز (القسم العربى رقم ٢٢٢٥) ، وهى بخط مغربى مقروء ، ولكن تنقصها الورقات الأولى والأخيرة ، هذا بالإضافة إلى بعض النقص الذى يوجد فيها من حين لآخر ، واثنتان بالمكتبة الوطنية بمدينة الجزائر : أولاهما (رقم ١٥٦٠) فى حالة جيدة وهى كاملة ، والثانية (رقم ٣٢١٦) رغم أنها كاملة ، إلا أنها فى حالة رديئة وذات خط غير مقروء فى بعض الأحوال . وإلى جانب ذلك رجعنا أخيراً إلى طبعة فون كرمر (von kremer) الخاصة بالمغرب والتى نشرها عن مخطوط لانعرف مصيره ، وهى تحتوى على كثير من النقص .

ولقد رمزنا لمخطوط باريز بالحرف "ب" ولمخطوطى الجزائر — حسب ترتيبهما المذكور — بالحرفين "ج" ، "م" ، ولطبعة كرمر بالحرف "ك" .

وأول مانلاحظه هو أن الأخطاء الإملائية الكثيرة والنحوية فى بعض الأحيان ، وكذلك اختلاف أسماء الأعلام ، تبين أن هذه المخطوطات نقلت فى عصر متأخر بالنسبة للمخطوط الأصلى بمعرفة نساخ لم ينالوا حظا كبيرا من الثقافة . وترتب على ذلك أن اضطررنا إلى الرجوع — فى كثير من الأحيان — إلى المؤلفات القديمة ، ومن ذلك أن جامع "الحَيْف" كتب فى جميع مابين أيدينا من نسخ جامع "الحنيفية" (ص ٣٣ وهامش أ) . ورغم اتساع دائرة عملنا نتيجة لذلك فإننا لاندعى أن النص الذى حققناه قد استقام بشكل كامل لاغبار عليه . فما زالت بعض الكلمات بل وبعض الجمل غير دقيقة أو قليلة الوضوح . وقد صادفتنا عبارات يبدو أنها من مصطلحات العمارة الإسلامية وهى غير محددة المعنى عندنا ، وذلك مثل "بحر مُرَخَّم" (ص ١٤—١٥) أو "حجارة مطرورة" (ص ٣٣، ٣٤) وقد فهمنا هذه العبارات حسب المعنى العام للجملة . وهكذا أخذنا "بحر مرخم" بمعنى فراغ مكسو بالرخام (الترجمة ص ٩) ، "وحجارة مطرورة" بمعنى حجارة مصقولة محددة أو حجارة مطينة مزينة (الترجمة ص ٢٠) . ونذكر كذلك كلمات « ثوران من نحاس » (ص ٢٠) ولقد فهمناها على أنها مسرجتان (شمعدانان) من نحاس (الترجمة ص ١٢) ، وجملة "فنازعنى فى القُرْب والشولى فغلبته (ص ١٨٥)" التى فهمناها على أنها : فتناقشنا فى أمر سمك التُنْ والزَجّر ولكننى فزت عليه . ونذكر أخيرا كلمة "ثليث" (ص ٢٠٠) وهى اسم علم لمدينة فى جنوب مراكش قرب سجلماسة ولانعرف عنها شيئا .

وفيما يختص بالترجمة فقد اجتهدنا فى نقل النص العربى إلى الفرنسية دون تصرف . ولم نخرج عن هذه القاعدة إلا فى الحالات التى يصعب فيها الترجمة الحرفية ، ففى هذه الحالات حاولنا نقل المعنى مع الحرص على عدم الابتعاد عن النص على قدر الإمكان . ولقد لاقينا فى هذا صعوبات كثيرة : كالتباين الخفيف بين مفهوم الكلمات ذات المعنى الواحد ، والصور التى يصعب نقلها كما هى ، والأساليب الخاصة بكل لغة . وعلى الجملة فقد كانت روح كلا اللغتين هى المهددة فى كل هذه الحالات . ويمكن إعطاء أمثلة كثيرة

لتوضيح هذه العقبات ، ودون البحث بعيدا فى أعماق النص يكفى النظر فى الصفحات الأولى من الكتاب ، حيث تكثر أمثلة هذه الصعوبات .

ولقد حرصنا على أن نزود النص بالهوامش المناسبة . والغرض من هذه الهوامش إما تحديد المؤلفات السابقة التى تعتبر من المصادر الرئيسية للنص ، وإما مقارنته بها . ولهذا السبب أيضا ذكرنا فى الهوامش بعض المصنفات المهمة من عصور متأخرة .

تقديم الطبعة المغربية

لما كانت طبعة جامعة الاسكندرية (1958) لكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وهو الكتاب الذي كان أصلا رسالة ثانوية للدكتوراة التي تقدمنا بها إلى جامعة باريس في يونيه 1951، قد نفدت منذ مدة طويلة. ولما كان الدارسون لتاريخ مكة والمدينة ومصر وبلاد السودان الغربي في العصور الاسلامية حتى القرن السادس الهجري / 12م في حاجة الى النظر في هذا الكتاب، فضلا عن حاجة دارسي تاريخ أقطار الشمال الافريقي الاسلامية وجغرافيتها، وهو الأمر الذي تنبه اليه منذ مدة طويلة بعض الزملاء الأفاضل والناشرين في تونس وفي مصر، فإنه يسرني أن تقوم الآن دار النشر المغربية بمدينة الدار البيضاء، مشكورة، بمعرفة مديرها السيد البوري محمد سعيد بإعادة نشر الكتاب في طبعة مغربية جديدة، أرجو أن تكون مفيدة للمشتغلين بالتاريخ الاسلامي وتاريخ الشمال الافريقي - إن شاء الله.

هذا، ولقد قمنا بتصحيح الأخطاء القليلة بطبعة الاسكندرية الأولى.

وعلى الله التوفيق.

سعد زغلول عبد الحميد

الكويت في 1985/1/6

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار

الحمد لله عالم الأسرار ، غافر الأضرار ، الواحد القهار ، العزيز الجبار ، المنزه الذى لا يقبض يديه سهاد الليل والنهار ؛ نحمده حمد معترف بوحدانيته ، ونشكره شكر مغترف من بحر نعمته ، متقلب فى ظل رحمته ؛ ونصلى على نبيه سيدنا محمد المبعوث بالآيات الباهرة ، والبينات القاهرة ، الآخذ عن النار بالحجزات ، الداعى إلى سبيل ربه بالآيات البينات ، وعلى آله الأخيار ، وأصحابه الأبرار ، صلاة باقية إلى يوم الدين ونرضى عن نجله الأطهر (١) ، وسليله الأبر ، الإمام المهدى[1] ، الذى جدد رسم الدين بعد البلى ، وجاهد فى سبيل الله حق جهاده وأبلى ، وإلى طريق الحق [دعا] النفرى والجفلى ؛ وعن الخلفاء الراشدين ، أئمة الهدى ، ومصابيح من رشد واهتدى . ونوالى الدعاء لخليفتهم المبارك الأسعد ، سيدنا أمير المؤمنين يعقوب (٢) بنصر تتصل أسبابه بسعادته ، وفتح يسوقه القدر وفق إرادته .

وبعد ، لما كان العلم أنفس ما يقتنى ، وأشرف ما به يعتنى ، لم يزل ينقله خلف عن سلف ويحمله ذو شرف عن ذى شرف ، وجب أن يكون أفضل ما يهديه مهد أو يستهديه مهدى ، رغبة فى الاتسام برسمه ، والارتسام والدخول

---

(١) ج : الأظهار .

(١) المهدى محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين (توفى ٥٢٢-٥٢٤ ؟ = ١١٢٨ - ١١٣٠) .

(٢) أبو يوسف يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن بن على وثالث خلفاء الموحدين . وملكه من سنة ٥٨٠ الى سنة ٥٩٥ هـ (١١٨٤ - ١١٩٩) .

فى رعيته ، والاستئثار بحيازة مآثر من تواريخ الأمم ، وسير العرب والعجم ، إذ كان المرء يقف منها على أخبار من غبر ، وآثار من ذهب ودثر ، ويشاهد ممالك ذهبت وبادت (ا) ، كأنها عادت إلى الحياة أوكادت :

لم يبق شىء من الدنيا أُسرّ به — إلا الدفاتر فيها الشعر والخبر
مات الذين لهم فضل ومكرمة — وفى الدفاتر من أخبارهم أثر

وقديما وضع (ب) الناس التواريخ ورتبوها ، ودونوا الأخبار وكونوها ، حرصا منهم على نظم فرائدها وتقييد شواردها ، وما زال واضعوها يتقلبون بين إكثار وإقلال ، وإسهاب واختصار ، وكلهم يجرى على طريقة إلى غاية يضيفها ويسطرها . وكثيرا ما خلد خدم العقلاء ملوك أزمنتهم بالتواريخ المؤلفة والتواليف المزخرفة ، تفننا لمسراتهم وترضيا لمبراتهم ، ولولا ذلك لم يحصل الآخر على علم الأول ، ولا عرفت أخبار الملل والدول . ولذلك رأيت الشيخ الأجل المعظم ، الأغر الأسنى ، الأمجد المكرم ، أبا (ج) عمران بن الشيخ الأرفع ، المرحوم أبى يحيى بن وقتين (١) أدام الله علاهم ، ووصل مجدهم وسراهم ، قد أبرز على الفضلاء فضلا ، وأربى على النبلاء نبلا ، وزاد على أهل زمانه فى العلم والحلم ، وغبطة بالعلم ووصل العلماء ومراضاة الفقهاء . وكانت همته السامية إلى طراف الأخبار ، وإيثار أهل الآثار ، إلى أن شادت بذلك الرفاق ، وامتلأت بحديثه الآفاق ، ونازعتنى الرغبة والتصدى لشكر النعمة ، إلى أن أطرز باسمه كتابا يجمع بين الأخبار والصحائف ، ويأخذ بطرفى شرائد الطرائف ، متضمنا بذلك إحسانه ، راجيا بذلك فضله وامتنانه بمنه حسبما أردته . و[لما] اتسق وصفه على ما اخترت ، سميته بكتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، بعد أن قصدت فى أكثره التحقيق واطرحت فى مستودعه التلفيق .

(ا) ج : أبادت . (ب) ج : وضعها . (ج) ج : أبو .

(١) إننا لا نعرف شيئا عن هذين الشخصين ، ولكن يمكن أن يقال ، من اسميهما ، إنهما من أصل بربرى .

وابتدأت بمكة شرفها الله تعالى ، وما يجب ذكره من وصف حرمها ، وأسماء الجبال المحيطة بها ، وذكر أرباضها ، ووصف المسجد الحرام بحسب الوسع ، وذرع الكعبة من خارج ، ووصفها من داخل . ووصفت الصفا والمروة ، وعرفة ومُزدَلِفة ، ومِنًى وجبل الرحمة ، مع شريعة إبراهيم عليه السلام وصفة بطن مُحسّر إلى غير ذلك من المناسك ، وصفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . ووصفت منبره عليه السلام ، ووصفت عدد أبواب المسجد ، وجميع ما فيه من العمد (ا) وعدد ما فيه من القناديل ، ووصف روضته عليه السلام . ثم وصفت بقية المدينة ، وروضة عثمان رضى الله عنه ووصفت مسجد قُبا ، وقبور الشهداء (ب) بأحد رحمة الله عليهم تبركا بذلك وتيمنا بالاستفتاح به .

ثم عدت إلى بلاد مصر وما فيها من العجائب ، ووصفت نيل مصر وعدد أمياله ، من وسطه إلى موقعه ، وذكرت بناء الأهرامات والبرابى (ج) ومن بناها ، وصورتها وطولها وعرضها وما صنع فيها من العجائب ؛ وذكرت من عمرها من الملوك قبل الطوفان وما نزل بها بهذا الطوفان ؛ وذكرت فتحها فى أيام سيدنا عمر (د) بن الخطاب رضى الله عنه . ثم عدت إلى مدينة الإسكندرية ، ووصفت بناءها وصفة منارها وصفة المرآة التى كانت بها وبناءها وتداول الملوك عليها .

ثم ذكرت بلاد إفريقية وما فيها من العجائب ، ووصفت مدينة قرطاجنة وآثارها وعجائبها ، ووصفت البلاد الى آخر بلاد المغرب . وقسمت أقطارها قسمين ، ورتبتها صنفين : فمنها الصحراوية أو ما قاربها ، والساحلية وما يليها .

ولم أذكر شيئا مما سقته إلا ما كاد ينعقد على أكثره الإجماع ، ويتفق عليه العيان والسماع ، وللمولى أدام الله تأييده ووصل سعوده ، أن يقدر عبده فيما أورده ، ويحقق فيما رجاه أمله ومعتمده ، فإنه وإن كان قد أنفذ وسعه فى الاختيار ، وتوسط بين الإقلال والإكثار ، حرى بالاحسان

(ا) ج : العمود . (ب) ج : الشهود . (ج) ج : الهارمات والبربرى .
(د) ج : عمار .

ظنا، ويرى التخميض عن هناته سنا ، إذ هو فيما ذكر كمن حمل التمر إلى هجر[1].
ومنك استعدنا كل غريبة ، فأنت غريبة فى عيون الغرائب . وهذا حين أبتدىء بذكر ما أردته فيما أوردته ، مستعينا بالله سبحانه ، راجيا صفحه وغفرانه ، والله سبحانه يمتع الأدب ببقاء المولى ، ويشكره ما منح الخلق من يده وأولى :

الناس يهدون على قدرهم وإننى أهـدى على قدركا
يهدون ما يفنى وأهدى الذى يبقى على الأزمان من فخركا

ذكر حدود حرم مكة شرفها الله [2]

حدّ الحرم من ناحية المدينة من ذى طُوَى[3] على ثلاثة أميال من مكة ، وحده من طريق جُدّة على عشرة أميال ، وحده من طريق اليمن على سبعة أميال ، وحده من طريق العراق على ستة أميال ، وحده من طريق الطائف على أحد عشر ميلا فعدد أميال الحرم ٣٧ ميلا[4] ، ودور الحرم حول مكة ٧٣٣ ميلا[5] ؛ وكان النبى صلعم بنى بالحرمين ١٥ مسجدا[6] .

---

(١) هجر هى مدينة البحرين المشهورة بكثرة تمرها . أنظر أبو الفدا (الجغرافية) ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٣٧ وهامش ٢ ، ٣ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٨٢٥ ، ٨٢٧

(٢) الحرم هو المنطقة المقدسة بمكة . ولكن هذا الإسم يطلق أيضا على أرض المدينة ومن هنا سميت المدينتان الحرمان

(٣) ذو طوى هو أحد أودية مكة على طريق المدينة وفيه توقف النبى عند فتح مكة . أنظر البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٤٥٧ ؛ الأزرقى ، ص ١٩٧ ، ٤٢٦ ، ٥٠٠ ؛ ابن جبير ، ص ١١٢ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٨٩ — ب ؛ الفاسى ، ص ٨٣

(٤) هذا المقياس لا معنى له وذلك أن المؤلف أضاف طول المسافات التى تبين حدود الحرم فى الاتجاهات المختلفة ، بالنسبة إلى المسجد الحرام ، بعضها إلى بعض .

(٥) هذه المسافة مبالغ فيها من غير شك والظاهر أن الصحيح هو ٧٣ ميلا فقط ، وذلك أن الأرض الحرام تمتد حول مكة مسيرة يوم تقريبا . أنظر أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٠٥ هامش ٥

(٦) أنظر البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٥٥٩

وصف مكة شرفها الله وأرباضها وأسماء الجبال المحيطة بها

جبل أبى قبيس[1] وهو جبل أدكن (أميل إلى البياض) ، فى رأسه منار يذكر أنه منار إبراهيم عليه السلام . وفى أصله الصفا[2] ومن عليه يرقى إليه ، ليس[(1)] له مرقى إلا على أربعة مواضع : على الصفا ، وعلى شعب عمر ، وعلى شعب على[3] رضى الله عنهما ، وعلى شِعْب أجياد الصغير[4] ، ليس لأبى قبيس طريق يرقى إليه إلا من هذه الأربعة مواضع . وهو أحد الأَخْشَبَين[5] فيما يقال ، ويقال إنه أول جبل خلقه الله تعالى ووضعه فى الأرض . وإنما سمى بأبى قبيس لأن رجلا كان يسكنه على قديم الدهر يكنى بأبى قبيس فنسب إليه ذلك الجبل . وهو أقرب الجبال إلى المسجد الحرام ، يقابل من مكة ويقابل من الكعبة الركن الأسود .

---

(١) ج : لرسو .

(١) أبو قبيس هو أحد جبال مكة المشهورة ويشرف على المدينة من جهة الشرق . وحسب الروايات المتداولة كان هذا الجبل يطلق عليه ، قبل الإسلام ، اسم « الأمين » لأنه حفظ الحجر الأسود من الطوفان . وهو أحد الجبلين المعروفين باسم « الأخشبان » . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٠٢ ؛ ابن جبير ، الرحلة ، ص ٨٠

(٢) أنظر فيما بعد ص ٢٩ والهامش .

(٣) الشعب هو الوادى الصغير أو الطريق يخترق الجبال . وهو الإسم الذى أطلق على أزقة مكة والطرق التى تؤدى إليها . أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٩٦ . وعن شعب عمر وشعب على أنظر الأزرقى ، ص ٤٧٩ ، ٤٨٦

(٤) هو الطريق الذى يقع مباشرة إلى جانب جبل «أبو قبيس» والذى يؤدى إلى الطريق الآخر المسمى «أجياد الكبير» . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٣٨ ؛ الأزرقى ، ص ٤٩٤ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٣ — ا . وعن الإسم « أجياد » أنظر فيما بعد ص ٨

(٥) الأخشبان (ومفردها أخشب وهو الجبل الصعب أو الأرض الخشنة : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٥٩ — ١٦٣ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٢ — ب) هما جبلا مكة الشهيران : أبو قبيس وجبل الخندمة (الأزرقى ، ص ٤٣ ، ١٣٩ ، ٤٧٨ . وعن الخندمة قارن ص ٦) . وحسب ابن رسته (ص ٢٩) كان موقف إبراهيم الخليل بين هذين الجبلين حينما دعا أهل اليمن والشام والشرق والمغرب إلى الحج إلى مكة والمسجد الحرام . وقارن البكرى ، المعجم ، ج ١ ص ٧٨ ؛ الاصطخرى ص ١٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٥ ؛ المقدسى ، ص ٧٧ .

ثم جبل الخنْدَمة(١) وهو الجبل العالى المستعلى على أبى قبيس من ناحية الشرق ، وهو (ا) جبل أحمر محجر فيه صخرة كبيرة بيضاء كأنها معلقة تشبه الإنسان إذا نظرت إليها من البعد ، تراها من المسجد الحرام من باب السهميين (ب) الصغير . وفى ذلك الجبل تحصن أهل مكة يوم القرمطى (ج) (٢). وأسفل (د) من ذلك الجبل ، بينه وبين الجبل غار ، شعب على رضى الله عنه .

ثم الجبل الأبيض(٣) الذى على الأبطح إلى باب مِنًى(٤) ، ومن ذلك الجبل إلى الجبل الأحمر السور ، وجعل هنالك بابين من خشب مصفحين بالحديد ، وهما على المعْلى (ر) (٥) وهما المعروفان بباب منى .
وعند هذا الباب آبار (س) بعيدة الرشا يستقى الناس منها ، وماؤها ليس بعذب

(ا) "وهو" ناقصة فى ب (ب) "السهميين" ناقصة فى ب. (ج) ج : القرموطى.
(د) ب : أسهل . (ر) ج : المعالى . (س) ب : أبيار .

(١) عن الخندمة أنظر الهامش السابق ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٦ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ١ ص ٣١٩ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٣ — ا ؛ ابن الأثير ، ج ١ ص ١٨٨. وتقول الرواية إن اسم هذا الجبل مأخوذ من الفعل «خدم» وذلك أنه عندما فتح النبى مكة خرج مع المكيين رجل كان يسكن هذا الجبل ، ووعد امرأته بأن يعود لها بخادم من أسرى المسلمين . فأطلق على الجبل بعد انتصار المسلمين اسم الخندمة تندرا وذكرى لهذا الحدث (الأزرق ص ٤٧٩) .

(٢) القرمطى المذكور هنا هو أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابى الذى استولى على مكة (فى ٨ من ذى الحجة سنة ٣١٧ = ١٢ يناير سنة ٩٣٠) وأخذ الحجر الأسود إلى الأحساء . أنظر ابن الأثير ، ج٨ص ٣١٧ ؛ الفاسى ، ص ٢٤١ ؛ G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 49. sq. ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢ ص ٨١٣ .

(٣) قارن الأزرق ، ص ٤٧٩ ، ٤٩٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٠٩

(٤) تسمى نهاية أزقة مكة التى تؤدى إلى الأبطح (وهو الجزء المنخفض من منطقة مكة) الذى يشرف على موقع المسجد الحرام «أبواب المسجد الحرام» . وأحدها هو باب منى . وعن الآبار القريبة من هذا الباب أنظر الأزرق ، ص ٤٧٩

(٥) المعلى هو الجزء المرتفع إلى جهة الشرق من مكة وهو الذى يشرف على الأجزاء المنخفضة المسماة بالمسفلة إلى جهة الغرب . العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٢ — ب ؛ ابن جبير ، ص ١١٣ ؛ G.-Demombynes. Pèlerinage, p. 197 .

جدا ، وهذا الجبل الأحمر متصل من مسجد الخيف (ا) (١) إلى الحَجُون (٢) وفيه الثنية العليا ، وعند أصل الثنية بقيع مكة (٣) . وفى شعب منه المُحَصَّب(٤) فى حوز الشعب الذى يقابل الخيف الذى كان ينزل فيه من سلف من الصادر الأول عندهم من منى إلى آخر أيام التشريق(٥)، فيصلون الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة ، وكذلك يدخلون مكة . وقد صح عن (ب) النبى صلعم أنه فعل ذلك(٦).

(ا) فى النص : "الحنيفيين" . أنظر فيما بعد ص ٣٣
(ب) ج : على .

(١) أنظر فيما بعد ص ٣٣ وهامش ١

(٢) الحجون هو الشعب أى الطريق الذى يؤدى إلى المعلى حيث مقبرة مكة . ومن هذا الطريق دخل النبى إلى مكة حين فتحها . ابن جبير ، ص ١٠٩ ، ١١٠ (G. -Demombynes, Pèlerinage, p. 314) ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢١٥ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٥ — ا . قارن اليعقوبى ، ص ٣١٤ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٣٩١ ، ٣٩٩ ؛ الفاسى ، ص ٨١ .

(٣) بقيع مكة هو أخفض أنحاء المدينة إلى حيث يتجه ماء السيل ، وهو الذى يسمى أيضا الأبطح والمحصب وذو طوى . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٩٢ ، ٦٥٩ ؛ ج ٤ ص ٤٢٥ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٤٤١ .

(٤) أنظر الهامش السابق وهامش ٥ ص ٣٢ . وهو المكان الذى تلقى فيه الجمرات (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٤٩) . ويطلق عليه أيضا اسم المحصب لأن ماء السيل ينطلق إليه ويجمع فيه الحصباء الفاسى ، ص ٤٩٤ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٤ . وانظر G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 237 .

(٥) عن أيام التشريق أنظر فيما بعد ص ٣١ . أما عن شرح اسم التشريق الذى تعرف به الأيام العشرة الأولى من شهر ذى الحجة فيقول المسعودى : «وقد اختلف الناس فى علة تسميتها أيام التشريق وهى أيام منى ولياليها . فقالت طائفة إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يذبحون الذبائح بمنى ويشرقون (يعرضون) اللحم فى الشمس . وقال آخرون إنما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يخرجون بمنى وغيرها كالمزدلفة إلى مصليات لهم فى فضاء من الأرض يسمونها المشارق واحدها مشراق فيسبحون ويدعون . وفيه قول آخر وهو أن طائفة زعمت أنه مأخوذ من ذبح البهائم وهو الشرق» . مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ . وقارن تنوير الحوالك ، ص ٣٥٧ .

(٦) قارن تنوير الحوالك ، ص ٣٥٥ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٤٣٩ ؛ ابن جبير ، ص ١٧٧ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٢ — ب .

ثم الجبل الذى بظهر دار الندوة(١) يسمى قُعَيْقِعان(٢)، وهو الذى يقابل أبا قبيس ، وهو جبل أخضر . وإنما يسمى قعيقعان لأن مَضاض بن جرهم نزل به ، ونزل السُمَيْدَعَ بن جرهم بجبل أجياد ، فدارت بينهما حرب عظيمة فى تلك الأيام ، فكانت أجياد — أعنى من سكن بها وهو السُمَيْدَع وآله — أول من جاد بالدم فى الحرم ودعا إلى القتل ، وقالت العرب فيها أجياد لأنها(ا) أول من جادت بالدم.

ثم جبل أجياد(٣)، وهو الجبل العالى الأخضر الذى بغربى المسجد الحرام فى رأسه منار يذكر أن أبا بكر رضه أمر ببنائه(٤)، ينادى عليه المؤذن فى رمضان ، ويقابل من الكعبة اليمانى ، ويخرج إليه من باب إبراهيم عليه السلام(٥). وهو يقابل قعيقعان من ناحية الغرب .

(ا) "لأنها" ناقصة فى ب .

(١) عن دار الندوة أنظر فيما بعد ص ٢٦ . بناها قصى بن كلاب وجعل بابها أمام الكعبة . وفى هذه الدار كان يجتمع القرشيون لمناقشة شئونهم . ولقد اشتراها معاوية ثم دخلت تدريجيا فى المسجد الحرام على عهد عبد الملك بن مروان ثم الوليد بن عبد الملك بعده ثم سليمان بن عبد الملك ، وكذلك على عهد المنصور العباسى إلى أن انتهى الأمر بإدخالها جميعا فى المسجد على عهد المعتضد بالله سنة ٢٨١ هـ = ٨٩٤ . الأزرقى ، ص ٦٥ ، ١٨٨ ، ٣١٠ ، ٣٤٠ وتابع . قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٢٤

(٢) رغم أن المؤلف يظهر رغبته فى شرح أصل اسم هذا الجبل إلا أنه لا يفعل . وتقول الرواية إنه أثناء الحرب بين السميدع بن جرهم وبين الحارث بن مضاض بن جرهم ، جعل هذا الأخير يقرع الرماح والدروع ومنها أتت كلمة قعيقعان بمعنى رنين . المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٩٩ ؛ الأزرقى ، ص ٤٥ ؛ قارن الاصطخرى ، ص ١٥ ؛ ابن حوقل ، ص ٢٣ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٤ ؛ المقدسى ، ص ١٠٣

(٣) قارن الأزرقى ، ص ٤٥ وتابع ، ص ٤٩٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص١٣٨ ؛ المسعودى، مروج الذهب، ج ٣ ص ٩٩. فيما يتعلق باسم أجياد يقول الأزرقى وياقوت إنه مأخوذ من كلمة جياد بمعنى خيل . وذلك أن السميدع عند ما خرج للحرب كان معه جياد مسرجة حسنة وبها سمى المكان

(٤) لا يقول الكتاب شيئا عن هذه المئذنة التى بناها أبو بكر .

(٥) عن باب إبراهيم أنظر فيما بعد ص ٢٤ — ٢٥

ثم جبل ابن عمران(١)، وهو الجبل الأسود الذى بين أبى قبيس وأجياد ، وهو خلفهما . ويظهر من البعد كأنه بينهما ، يقابل من الكعبة الجدار اليمانى ، وهو أميل إلى الركن اليمانى قليلا .

ثم جبل البُكا(٢)، وهو خارج على الجبال المحيطة بمكة ، وهو فى العطف الذى فى آخر ذى طوى ، عن يمينك وأنت خارج تريد التنعيم(٣) . وهناك عن يسارك المتكا(٤)، وهو الحجر الذى قعد عليه النبى صلعم واستراح عند إقباله عليه فيما يذكر أهل مكة ، رووه عن مشيخهم .

عدد أرباض مكة شرفها الله

ولمكة أربعة أرباض منها الحَجُون(٥) وما حوله إلى المَرْوَة(٦) ، وربض قُعَيْقِعان(٧) وما حوله إلى باب ذى طُوَى(٨)، وربض أجياد الكبير(٩)

(١) يسمى الأزرقى (ص ٤٩٤) هذا الجبل « رأس الانسان » . قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٧٣١

(٢) لا يقول الكتاب شيئا عن هذا الجبل .

(٣) يبدأ أهل مكة الإحرام من أجل العمرة من هذا المكان . وهو يسمى أيضا « مسجد عائشة» وهو ليس من الحرم . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٧٩ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ١ ص ٢٠٠ ؛ ابن جبير ، ص ١١١ (G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 195) ؛ قارن ابن حوقل ، ص ٢٥ ؛ المقدسى ، ص ٧٧

(٤) لا يقول الكتاب شيئا عن هذا الحجر.

(٥) أنظر فيما قبل هامش ٢ ص ٧

(٦) المروة أشهر تل فى مكة واسمه مرتبط دائما باسم تل «الصفا» ، فبينهما يجرى طقس من أهم طقوس الحج والعمرة ألا وهو السعى . القرآن ، سورة ٢ ، آية ١٥٣ ؛ البخارى ، ج ١ ص ٤١٤ ؛ البكرى ، المعجم ، ج ٢ ص ٥١٩ ؛ ابن جبير ، ص ١٠٧ ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ١٠٢ — ١ ؛ ابن رسته ، ص ٥٤ ؛ الاصطخرى ، ص ١٦ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٥ ؛ المقدسى ، ص ٧٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥١٩

(٧) أنظر فيما قبل هامش ٢ ص ٨

(٨) أنظر فيما قبل هامش ٣ ص ٤

(٩) أنظر فيما قبل ص ٨ وهامش ٣

مع شعب أبى بكر رضه إلى المسفلة(١) إلى باب اليمانيين ، ثم إلى الأبطح(١) وما حوله من باب منى(٢) إلى شعب، على مع شعب عثمان(٣).

ذرع الكعبة كرمها الله من خارج(٤)

طول وجه الكعبة وهو الشق الذى فيه الباب ، من الركن الأسود إلى الركن الشامى ٢٧ ذراعا(٥) . وعند الثلث الباقى من هذا الجدار من ناحية الركن الشامى ، يوقف منبر الخطيب يوم الجمعة ويرفع فى سائر الأيام ، وهو منبر كبير مفصل على ثلاثة قطع(٦). وطول مؤخرها وهو الشق الغربى ، من الركن اليمانى إلى الركن الغربى ، ٢٧ ذراعا – طول الذراع الذى به هذا الذرع (ب) ٢٠ أصبعا(٧) . وعرضها من ناحية اليمانى إلى الركن الأسود ٣١ ذراعا

---

(١) ب ، ج : بطح . (ب) القراءة فى ج : الذى هو الذرع .

---

(١) أنظر فيما قبل هامش ٥ ص ٦

(٢) أنظر فيما قبل هامش ٤ ص ٦

(٣) أنظر فيما قبل ص ٥ والهوامش

(٤) لا يتفق الكتاب على مقاييس الكعبة والمسجد الحرام . ودون أن نحاول تحقيق المقاييس الصحيحة لكل فترة ، ودون تأييد الواحد منهم أو الآخر ، سنكتفى بالإشارة إلى أهم رواياتهم . ولكن يحسن الإشارة إلى أن كتاب الأزرقى يعتبر المصدر الرئيسى فى هذا المقام . فلقد نقله ابن رسته وذكره معظم الجغرافيين والرحالة مثل ابن جبير وياقوت والعبدرى والفاسى .. الخ .

ويحسن أيضا أن نشير إلى أن ما كتبه المؤلف هنا يختلف عن بقية المصادر . وهذا يدعو إلى الظن بأنه عمل شخصى أى مبتكر ، نقله صاحب الاستبصار عن مصدر لم يصل إلينا . وهو هنا وعلى عكس بقية أجزاء الكتاب لا يذكر اسم أى مؤلف .

(٥) يقول ابن الفقيه (ص ٢٠) دون دقة إن طول المسجد ، فى وقته ، ٢٧ ذراعا ؛ وعلى العكس من ذلك يروى الأزرقى أن طول هذه الواجهة ٢٥ ذراعا (ص ٢٠٥ ؛ ابن رسته ، ص ٣٠ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٦) . وحسب ابن خرداذبه (ص ١٣٣) يكون طوله ٢٤ ذراعا وشبر وعرضه ٢٣ ذراعا وشبر (المقدسى ، ص ٧٢) .

(٦) قارن ابن جبير ، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٧) حسب الأزرقى (ص ٢٠٣) يكون طول هذه الواجهة ٢٥ ذراعا (ابن رسته ، ص ٣٠) . وكذلك الحال بالنسبة لليعقوبى (ص ٣١٦) وابن عبد ربه (العقد الفريد ، ج ٣ ص ٣٦٣) . ويقرر الأزرقى (ص ٣٠٣) أن طول الذراع هنا هو ٢٤ أصبعا (ابن رسته ص ٣٠) .

ونصف ذراع(١) ، وعرضها من ناحية الشام وهو الشق الشامى وهو الذى عليه الميزاب(٢) (ا) ، من الركن الغربى إلى الركن الشامى ، ٢٤ ذراعا(٣).

هذا ذرع البيت من خارج . وذرعه من داخل : طول الجدار (ب) الذى يقابلك إذا دخلت البيت الذى فيه محاريب الفضة(٤)، وهو الذى صلى عليه النبى صلعم ، من الركن الغربى إلى الركن اليمانى ، ٢٢ ذراعا(٥). وطول الجدار الذى فيه الباب ، من الركن الأسود إلى الركن الشامى ، ٢٩ ذراعا(٦) ، بسبب (ج) الركن الذى بناه الحجاج بن يوسف فى داخل البيت فى الركن الشامى ، وجعل فيه سلما من داخل الركن يرقى منه إلى ظهر الكعبة لتعليق الكسوة(٧) . وعرض الجدار الشامى ، الذى بين الركن الغربى والركن الشامى ، ١٥ ذراعا ونصف ذراع(٨) ، نقص ذرع (د) الجدار

(ا) ج : الضراب (ب) ج : الحبال الجدار (ج) "بسبب" ناقصة فى ب .
(د) "نقص ذرع" ناقصة فى ج .

---

(١) طول هذه الواجهة ، حسب الأزرقى (ص ٢٠٣) ، ٢٠ ذراعا (ابن رسته ص ٣٠) ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لليعقوبى (ص ٣١٦) وبالنسبة لابن عبد ربه (العقد ، ج ٣ ص ٣٦٣) . أما ابن الفقيه فيقول إن طولها ١٥ ذراعا وشبر .

(٢) أنظر فيما بعد ص ١٩ وقارن الأزرقى ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ، ص ٣٠ ؛ ابن جبير ، ص ٨٧ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٧٩

(٣) قارن الأزرقى ، ص ٢٠٣ ؛ ابن رسته (٢١ ذراعا) ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٦ (٢٢ ذراعا) .

(٤) لا يقول الكتاب شيئا عن هذا الحائط حيث توجد محاريب الفضة . ولكنا نظن أنها عبارة عن بابين صغيرين من فضة أشبه بالشباكين الملصوقين بركن الحجر الأسود . ابن جبير ، ص ٨٤ .

(٥) قارن الأزرقى ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ، ص ٣١ (٢٠ ذراعا و ٦ أشبار) .

(٦) الأزرقى ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ص ٣١ (١٩ ذراعا و ١٠ أشبار) .

(٧) بعد أن فتح الحجاج مكة وفيها ابن الزبير هدم ، بأمر الوليد [illegible] الملك ، الكعبة التى كان ابن الزبير قد بناها (حسب ما كانت عليه أيام ابراهيم الخليل . [illegible] البخارى ، ج ١ ص ٤٠١) ، وأعاد بناءها كما كانت من قبل مع بعض الإصلاحات مثل عمل السلم الذى يؤدى إلى سطح الكعبة . قارن الأزرقى ، ص ١٤٦ ؛ ابن رسته ، ص ٣٣ ؛ ابن جبير ، ص ٨٤ (G.-Demombynes, Pèlerinage, p. 52) ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٩٨ – ا . ب

(٨) قارن الأزرقى ، ص ٢٠٤ ؛ ابن رسته ، ص ٣١ (١٥ ذراعا و ٨ أشبار) .